

إسماعيل الناشف

## طفولة حزيران: دار الفتى العربي وأدب المأساة

(رام الله: مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، 2016).

أباهر السقا<sup>(\*)</sup>

جامعة بيرزيت.

### خطاظة الكتاب

يحتوي هذا الكتاب على ستة فصول، يعرض الناشف في الفصل الأول الأطر النظرية التاريخية لدراسة العلاقة بين ثلاثية الطفولة واللغة والأدب. في حين يعرض الفصل الثاني البيئة النصية عبر ثلاثية أخرى، هي: أولاً، البيئة النصية الفكرية التربوية التي سبقت ولادة دار الطفل العربي. وثانياً، فحص البيئة النصية عبر الإصدارات. وأما المحور الثالث فاعتنى ببنية المدونة الداخلية ليقول مثل ليفي سترويس بالمعقولة الداخلية للنص. أما الفصل الرابع فيقوم بتحليل آليات يسميها الناشف بالآليات عينية ضابطة لسردية المدونة، وذلك عبر محورين أساسيين: الأول، الجغرافية القومية المتخيلة والخطاظة الزمنية للجماعة القومية؛ والثاني تشكيلات أزمنة مختلفة كونية مرتبطة بالتاريخ العربي/الإسلامي،

يطرح هذا الكتاب بقراءة مستفيضة الطفولة كمفهوم سوسولوجي ضمن عملية تأريخ للنظم الاجتماعية، من خلال مقارنة أدب الأطفال بعد نكسة 1967؛ والتي وسمت هذا الكتاب. يبدأ الناشف بتتبع تاريخية تأسيس دار الطفل العربي وعلاقة هذا التأسيس بالقضية الفلسطينية، والتي مثلت في حينها إحدى أمنيات الجماعة العربية لتخليق جماعة عربية جديدة متخذة من نموذج «الأمة- الدولة»، عبر محاكاة النماذج الغربية الحديثة. كما ينقلنا إسماعيل الناشف لعرض الآليات السردية وكيفية اشتغال هذه الآليات لإنتاج السرديات وتمحيص نموذجها الدراسي «الفتى العربي». وفي هذا المحور يهتم الكتاب بموضوعة دراسة الطفولة وتحديداً في الوطن العربي، ودراسة أدب الأطفال العربي، ويهتم على وجه الخصوص بكيفية موضوعة الأطفال في ما يخص القضية الفلسطينية.

الدراسي، مع تقديم مقارنة سوسولوجية عن الفاعلين وخلفياتهم، وتصنيف أعمالهم عبر دراسة حالة وليس دراسة عينات، والتعامل معها كنسق للدراسة بتنوعها لا بتجانسها.

حرص الكاتب على وضع مقدمة لمساعدة القارئ على التوجه إلى خطاطة كل فصل؛ وهو إذ يفعل ذلك يربط المقاربات النظرية ويعرضها وينقدها ثم يقحم مداخلته في موضوع بحثه، ويظهر لنا المشترك في عملية الإنتاج السردية؛ ويشرح خصوصية حقل أدب الأطفال فيسافر بالقارئ بين القراءات الماركسية والبنوية وما بعد الحداثية، وتبيان عملية التأريخ العربية لولادة هذا الحقل، وأثر الأدب العالمي واستحضاره أحياناً باعتباره نتاجاً كونياً، مع إظهار أن عملية المحاكاة هذه لم تأخذ بعين الاعتبار العمليات التاريخية لتشكيل هذه الحقول في سياقاتها الغربية المغايرة تماماً للسياقات العربية. ثم يعرّج بالقارئ عن كيفية توظيفها من فاعلي عالم الكبار لعالم الصغار.

يحاول إسماعيل الناشف تقديم قراءة مغايرة تقوم على فهم شروط إنتاج هذه الدراسات في حالته الدراسية «دار الطفل العربي»، وذلك عبر تتبع تبعات نكسة 67 وعمليات المؤسسة لهذا الحقل والخطاب المنتج حوله؛ معتبراً أنها أنتجت خطابات محمّلة بالخطابات الأخلاقية ذات الطابع الأبوي. ثم ينقلنا إلى «مفهوم الطفل» والطفولة وعمليات إنتاجها كصناعات اجتماعية بالمعنى الذي يعطيه بيير بورديو؛ ساعياً لتقديم تصورات إجرائية نقدية

مذكراً بإرهاصات الجابري لقراءة الأزمنة العربية وأزمات التماثل والعوامل المختلفة لهذه العوامل. بينما يهتم الفصل الخامس بموقع القضية الفلسطينية في مدونة دار الطفل العربي، عبر تسليط الضوء على القراءات، وتحديد أعمال غسان كنفاني. بينما ذهب الفصل الأخير والسادس إلى تمحيص المداخلة الأساسية لدار الفتى العربي في حقل أدب الأطفال.

يستهل الباحث كتابه بمقاربة نظرية تقوم على دراسة تاريخية لموقع الأطفال كونياً، ثم ينقل نقاشات مركزية لمنظرين مثل باختين وبوردو ولاكان؛ حول آليات الانتقال من الحالة الطبيعية إلى الحالة الاجتماعية في حالة الأطفال، وذلك بالارتكاز على ثلاثي معرفي هو اللغة والطفولة والأدب. ثم يكشف ولادة مفهوم الطفولة بمعناه الحداثي المعاصر في الوطن العربي؛ حاملاً إلى القارئ الصعوبات اللغوية؛ فاتحاً له التساؤلات المعرفية عن لغة نكتب؛ وبأية مفردات وبأية تعبيرات، وكأنه يقول ما يقوله بورديو «فهم الطفولة كمحدد اجتماعي»؛ مع ربطها بصعوبات خاصة بالسياق العربي، عبر استعراض التخيلات حول تخليق الجماعة العربية المشتهاة وبين الواقع المعاش لها؛ وما يحدثه ذلك على تمثلات الذوات العربية عبر استقدام منظومات قيمة معيارية حديثة.

### من ناحية منهجية

يجعل الكتاب من إصدارات دار الفتى العربي من 1974-1993 موضوعه

المركزي التحليلي، ناقلاً إلى القارئ البيئية المنتجة للنص الأدبي، والتي - بحسبه - مغايرة عن البيئة النصية المنتجة في العلوم الاجتماعية، مستخدماً هنا مفهوم الحقل بالمعنى البورديزاني؛ عبر قراءة حدث الهزيمة من خلال سبر وثائق مؤسسة مثل «فلسفة الشعب التربوية للشعب العربي الفلسطيني»، وتفكيك معالم البيئة النصية والمحاولات التأسيسية لتخليق خطاب تربوي ثوري معتمداً هنا على تقنيتين: الأولى تهتم بتحليل المضمون من خلال تحليل مفرداته؛ والثانية تعمل على تحليل الخطاب لفحص المنظومة القيمية الخطابية والدلالات المفاهيمية لها، والصراعات المعرفية لفاعلها في متن النصوص التي حللها ببراعة متناهية. ثم يحيل القراء على المدونة نفسها في المجالات والمضامين وعملية صناعة مجالات التداخل وفقاً للفتات العمرية التي تم اعتمادها، والنصوص الموجهة لها سواء كان ذلك عبر التأليف أو عبر عملية الاستقبال. ثم يقدم للقارئ مجموعة السلاسل الأدبية المنتجة زمنياً، إما كنصوص تدريسية تلقينية أو كنصوص تجمع بين الأدبي والعلمي برؤى علمانية وحدائية ورؤى «تحديثية» على اللغة العربية ومضامينها، ويقوم بعقد مقارنات مع دور نشر أخرى ودور بعض المؤلفين فيها في صياغة بعض التوجهات الفكرية والأدبية.

يحلل الكاتب هنا نموذجين: الأول، نصوص «محيي الدين اللباد» فيشرح للقارئ إشكاليات حضور مفردات معينة وتغيّب مفردات أخرى؛ والثاني، نصوص

حولها عبر عرض المقاربات النظرية، والتي تجمع بين تصورات الماركسية والمنظومات المعرفية المختلفة حول العلاقة بين البيولوجي والاجتماعي. بعد ذلك يعرّج على اللغة والواقع والمخيال الجمعي. ويمحص التناقضات بين عمليات اكتساب اللغة وثنائية الواقع والمخيال والفجوة بينهما. وهو إذ يبحر بين التصورات اللاكونية - لاكون - باعتبار اللغة كتجسيد لنظام اجتماعي وبين تصورات التربويين - كبيجي -، ويستحضر بعمق منظومة التوليد لخلق الاستعدادات وفق تصوّر بورديو عن «الهابيتوس»، عبر أدوات نقل الأمر الاجتماعي وموقع الأدوات الناقلة، وتحديد لكل من مؤسسات العائلة والوسط الاجتماعي، وصناعة الذائقة وتخليق الرساميل فيها وعبرها. ثم يخصص مبحثاً لأدب الأطفال ومأسسة الجماليات وتتبع سياقاتها التاريخية وشروط إنتاجها. ثم يبحث في الأدب العربي وأدب الأطفال خصوصاً، والسجلات حول نشوئها وعلاقتها بثنائية الحداثة والإرث الثقافي العربي، ثم يفحص مركزية اللغة العربية كحاضنة بين العام والمشارك وبين التحويرات العديدة حسب النظم العربية المختلفة المنتجة لها.

وينطلق الناشر من قراءة الحدث بالمعنى الذي يمكن أن نراه كما لو كان يقول مع آلان باديو فيه حدث مؤسس، حيث مركزية النكسة كحدث مؤسس مع الإشارة إلى التناقضات التي أنتجتها الوطنية الفلسطينية وعلاقتها مع القومية العربية.

ثم يجعل الكاتب من عرض البيئة النصية لمدونة دار الفتى العربي محوره

الجغرافية وإشكاليات النقل المرتبطة بالثقافة المركزية الغربية وهيمنة اللغة الإنكليزية؛ ويحيل القارئ على قراءات تفكيكية في قصص وحكايات محددة ينقدها، وتحديداً حول وصف الوطن العربي وإشكالية تمثيل الزراعة والصناعة، ويظهر لنا تخبط التأويلات المفسرة وربطها بالعوامل الخارجية كالاستعمار وغياب عمليات التحديث والحلول المقترحة لها؛ ثم يقوم بعرض الإنتاجات حسب التصنيفات العمرية.

المثير هنا هو جغرافية المسكن عبر صورته في السرديات، وبشكل أكثر إثارة الجغرافية المتخيلة للجسد، وهو إذ يفعل يذكرنا بالأعمال التي حاولت أن تفسر أثر تمثيلات الجسد في صناعة العمارة والأشكال المعمارية، كأعمال المغربي عبد الصمد الديالمي، ولكن هنا عبر قراءة التناصت الأدبية. يجعل الناشر من المعالجة الأدبية والمعرفية للبيئة العربية مادة لفهم علاقة النوع والمسكن، ومن خلفه بصورة أشمل الفضاء الجغرافي المتخيل، والتي تبرز التناقض والفشل في جغرافية القومية العربية في تكريس نفسها كواقع معاش، ولحظة الزمن واختيار روايات التاريخ العربي الانتقائية؛ وهنا يذكرنا مرة أخرى بقراءات الجابري حول «الزمن الثقافي العربي»، ولكنه هنا يفعل عبر قراءة مدونة دار الفتى العربي من خلال تقسيمات «زمن كوني»، وأزمة أخرى أدبية مرتبطة بإيقاع الأحداث والزمن كموضوع والزمن كشخصية رئيسية، وملامح الخطاطة الزمنية العربية، ويحاول أن يتقصى ثنائية متناقضة هي الهزيمة والنهضة، ويعرضها

صنع الله إبراهيم شارحاً طريقة تبسيط النصوص والجديد فيها، وعلائمة المزج بين العلمي والسرد، وكيفية اعتماده على التجريب والإنتاج كتشكيلة خطابية.

ثم ينقلنا في الفصل الرابع إلى ما يسميهما الكاتب بـ «الجغرافية المتخيلة» و«الخطاطة الزمنية»؛ وهنا يقدم إسماعيل ناشف النماذج الجغرافية المتخيلة وفقاً لنموذج «أندرسون»، ثم يفحص مآله وأشكال تشكله في الجغرافية المتخيلة للجماعة العربية بين حقيقتها بطرفها الاستعماري، وبين متخيلها والخطاطة الزمنية الناظمة لتخيلات منتجي مدونة الفتى العربي. ثم يشرح للقراء بإسهاب مبررات هذا المنحى المنهجي وكيفية فعله جامعاً من القصد والسرد وترتيب الأحداث ومبنى الحكمة محاور تحليله. ولكي يصل إلى ذلك يقدم الناشر قراءة تاريخية لتشكل أدب الأطفال من خلال مجموعة من النصوص النقدية لهذا الأدب وفحص مفهوم الزمن، وقد نرى في هذه المحاولة ما يشبه مقاربة نوربير الياس عن «الزمن»، حيث يشرح الياس كيف تم تهميش هذا المتغير «الزمن»، في الأبحاث السوسولوجية بأوروبا، بينما يهتم الناشر بالسرديات الأدبية مجالاً لتقصي هذا التغيب السردى الزمني وأثره في الواقع المعاش. ثم يغوص في مدونة الفتى العربي لدراسة الجغرافية المتخيلة والخطاطة الزمنية، ويلفت نظر القارئ إلى بعض الإشكاليات في عمليات التصنيف هذه؛ ثم يسبر في عمق المتخيل الجغرافي والمتخيل الزمني للمدونة، فمن جهة يظهر لنا رحابة الرقعة

إحسان عباس ورؤيته لمدونة كنفاني كخطاطة للرؤية الجماعية الفلسطينية. ويُظهر الكاتب دور كنفاني في نقل المأساة الفلسطينية عبر الرواية، من خلال عرض محاور مركزية في أعماله مثل عقدة الذنب، وآليات الخروج عنها عبر مسلكي «التحرير والعودة». ثم يقدم عرضاً لصور فلسطين في المدونة عبر إنشائها سردية تاريخية وطنية فلسطينية، فيشرح لنا قراءته لكيفية التعاطي مع الأحداث وكذلك الشخوص وأشكال الخلاص عبر التضحية.

أما في الفصل السادس، فيغوص إسماعيل الناشف في أدب المأساة، في جدلية «ترحيله» و«الرحلة»، ويفتح هذا الفصل بمقاربات نقدية حول حضور التراجيديا واستحضارها في سياقات كونية وتمحيص العربي منها بشكل أكبر، ليلج به إلى الفلسطيني، فاتحاً تساؤلات حول المكان وفقدانه والفارق بين «الزمن» و«الزمن المكان»، ثم يعود لفحص «الترحيل الرحلة» في المقاربات العابرة للأجيال وإنتاج أدب المأساة للأطفال، ويشرح في مبحثه الترحيل الرحلة في المدونة نقل مأساة الجماعة - الأمة العربية، واضطراب علاقتها القومية بمسكنها؛ ثم يقوم بمقاربة التفاعل بين المنظرين العرب على اختلافاتهم وخصوصياتهم مع المأساة الفلسطينية، كذلك تفاعلات الفلسطينيين أنفسهم مع مأساتهم.

أخيراً يسعى الناشف إلى إعادة تأطير المأساة الفلسطينية ودورها في إعادة إنتاج جماعية «جماعة الأمة العربية» وعمليات اكتشاف الذات الجماعية وكيفية إعادة بنائها. ويخلص المؤلف إلى أن عملية الترحيل هذه لم تنشك مباشرة

عبر أزمة ثالث الفئدة العمرية، الزمن العربي الزمن الأدبي.

تنطلق مدونة دار الفتى العربي من فكر قومي علماني ويعمل محوراها: الجغرافية المتخيلة والخطاطة الزمنية المبنية؛ كبنية تحتية ضابطة لعملية الإنتاج والتوليد النصية في المدونة، وتشخيص التناقضات في قدرة الجماعة الأمة في تحقيق جماعيتها في قالب الدولة - الأمة بالمعنى العام.

أما في الفصل الخامس، والموسوم بالمنظور وعدساته، فيهتم الناشف بالبنية السردية للمأساة الفلسطينية، حيث إن القضية الفلسطينية هي الناظمة للمدونة؛ ويظهر بشكل جلي للقارئ بأن دراسة المدونة قد تساعدا على فهم آليات بناء التصورات والمفاهيم حول القضية العربية في الإنتاجات العربية، والذي تفتحه المدونة مظهراً تنوع الفاعلين العرب.

هذا الاهتمام بمادة المأساة الفلسطينية يقدمه الكاتب وفق «مقاربة تراجيدية»، حيث تحتل فيها أعمال غسان كنفاني مكاناً مركزياً؛ ولكن قبل أن يفعل هذا يعرض للقراء نوعية النصوص التي تناولت القضية الفلسطينية فيصنفها إلى عدة صنافيات: نصوص تاريخية تسرد جوانب مختلفة للقضية الفلسطينية، ونصوص تستجلب جوانب مدينية وثقافية ونصوص توثيقية؛ ونصوص أدبية تعالج جوانب من المأساة الفلسطينية. ويظهر عبر النصوص الأربعة أن ثمة تناصاً بين النصوص التي ألفها كنفاني وبين المكوّن النسقي للمدونة. ثم يفكك رؤى لبعض من كتّبت عن غسان كنفاني، وتحديداً كتابات

لحظة العودة، وذلك عوضاً عن العودة بما هي تحرير للجماعية الفلسطينية».

بقي أن نقول إن هذا الكتاب يقدم قراءة تفكيكية، وبرغم محاولات الكاتب الحثيثة لشرح بعض المفاهيم المعقدة في النص، إلا أنه لم يتمكن من تبسيطها للقارئ غير المتخصص، إذ لا يزال النص يحتوي على صعوبات تستعصي على بعض القراء. كما أن النص على غناه وثرائه، تشوبه بعض التكرارات في متنه. أخيراً، فإن كتاب إسماعيل الناشر يشكل مرجعاً مهماً وكتاباً إرشادياً للباحثين في أدب الأطفال في الوطن العربي، وهو عمل يثري المكتبة العربية.

مع حدث فقدان نفسه وبنيته، وتنتج لنا ما أقتبسه من الناشر عن تصور الرحلة الاستكشافية في مدة المأساة الفلسطينية عن «إشكاليتين تكمن الإشكالية الأولى: التراكم الحاصل على طبقات المعمار السردى الفلسطيني والعربي وهو يكشف بشدة اضطراب العلاقة بين الجماعية الفلسطينية ومسكنها/ويكرّس خطاظة الزمن في انبناء الجماعة القومية الفلسطينية. وأما الإشكالية الثانية فتكمن في تطور بيئة غياب عقدة الذنب والشعور بالقصور والتدني، وانحسار مسلك العودة والتحرير في عودة الجسد عبر انتفائه في